العرب
الجمعة 2020/01/03
السنة 42 العدد 11575

حضور المرأة في الشعر لا يوازيه حضورها في نقده

النقد الأكاديمي بنى من صيغه الصارمة سورا يضاعف من عزلته عن الحياة الشعرية العربية

لئن تراجع نقد الشعر بشكل كبير مؤخرا، فإن حضور المرأة الناقدة للشعر شهد بدوره تراجعا، رغم تعاظم حضور المرأة في القصيدة وما يكتب من شعر من قبل النساء والرجال، وبعيدا عن التصنيف الجنسي، فإن المفارقة تستدعي الانتباه إلى أن يتطور حضور المرأة في الشعر ويتراجع حضورها فعليا في نقده.

مفيد نجم
كاتب سوري

الإسهامات النقدية للمرأة الناقدة ما زالت محدودة وكأن هذا الحقل من الكتابة خاص بالنقاد الرجال. إن هذا الحضور الخجول للمرأة الناقدة يجعل دور المرأة في الحياة الأدبية منقوصا وهي مسؤولية تقع على عاتق الكاتبات قبل أي أحد آخر.

> دراسات المرأة للشعر نادرة ولم تشكل رافدا للحياة الثقافية، كما لم تستطع أن تنخرط بفاعلية في الحياة الأدبية

السؤال الذي يطرحه هذا الواقع هو لماذا يظل هذا الدور ضعيفا وغير مؤثر بالنسبة إلى المرأة الكاتبة، ولماذا تؤثر المرأة الكاتبة التوجه نحو الكتابة الإبداعية وفي مقدمتها الرواية والشعر في حين تبدو جهودها في حقل النقد الأدبي متواضعة. قد لا تكون هذه الظاهرة في الحياة الأدبية بالنسبة إلى المرأة الكاتبة هي الوحيدة إذ ظلت إسهامات المرأة في الكتابة المسرحية لا تذكر دون أن يكون هناك أي تفسير لهذه الظاهرة لا من قبل النقد ولا دارسي الأدب العربي.

نقد الشعر

قبل الحديث عن الدور النقدي شبه الغائب للمرأة الكاتبة لا بد من التمييز بين نوعين من المساهمة النقدية للمرأة وهي المساهمة الأكاديمية التي يظهر فيها تطور واضح في إسهام المرأة ضمن حقل الدراسات الأدبية والنقدية وقد تطور مع تطور وضع المرأة التعليمي في الجامعات، لكن هذه المساهمة كأغلب الدراسات الأكاديمية يكاد يظل محصورا داخل أسوار هذه الجامعات لأكثر من سبب لعل أهمها التزام هذه الدراسات بالمنهج الأكاديمي الصارم الذي يتطلب قارئا خاصا يمكنه أن يستوعب حجم المصطلحات واللغة الجافة التي تتميز بها.

لذلك لم تستطع هذه الدراسات أن تشكل رافدا للحياة الثقافية كما لم تستطع كاتباتها أن تنخرط بفاعلية في الحياة الأدبية. وفي حين تبدو مشاركة المرأة الناقدة في نقد الرواية والدراسات الخاصة بها خاصة من منظور نسوي معقولة إلى حدّ ما تبدو مشاركة المرأة الناقدة في نقد الشعر تحديدا شبه غائبة باستثناءات لا تذكر على الرغم من أهمية بعضها.

من المعروف أن نقد الشعر في هذه المرحلة التي تتصدر فيها الرواية المشهد الأدبي لم يعد يغري العديد من النقاد فكيف يكون بالنسبة إلى المرأة الكاتبة التي لم تؤسس حتى الآن لها حضورا يذكر في هذا المشهد.

لقد انعكس تراجع حضور الشعر في الحياة الثقافية على الاهتمام النقدي به وكان للفوضى الراهنة التي تعيشها الكتابة الشعرية دور واضح في هذا السياق.

إن صعوبة القراءة النقدية للشعر خاصة بعد التطور الذي شهدته كتابة القصيدة الحديثة لم يكن أقل تأثيرا في تراجع الاهتمام النقدي بالشعر، وهذه المسألة لا تتعلق بالممارسة النقدية العربية وحدها بل تتجاوزها إلى النقد الغربي الذي بات مشغولا بدراسة الرواية.

لقد أثر هذا الواقع الثقافي على الاهتمام النقدي بدراسة الشعر وتحليله عموما، وعلى توجهات المرأة الناقدة للتخصص في دراسة الشعر تحديدا، خاصة مع تراجع الترجمات الخاصة بدراسة الشعر ومناهجها المختلفة.

إن هذا الوضع الخاص بإسهام المرأة الناقدة في مجال الشعر يدل على أن انشغالها بهذا الفن يكاد يكون شبه غائب وهو ما يضاعف في مشكلة حضورها الثقافي الفاعل ولاسيما في مجال النقد بشقيه النظري والتطبيقي.

إن غياب انفتاح النقد الأكاديمي في أغلب حالاته على الحياة الثقافية وعدم تجاوزه لجدران عزلته قد أضعف في دور المرأة الناقدة في الحياة الثقافية ما أثر سلبا على هذا الدور ولاسيما في مجال الدراسات النقدية للشعر. وإذا كانت المسؤولية في ذلك تقع على عاتق المرأة المتخصصة في مجال الدراسات النقدية فإن المطلوب هو تطويع هذه اللغة النقدية لكي تصبح أكثر تيسيرا على القارئ وهو قارئ كما نعرف متعدد المستويات التعليمية والإمكانات المعرفية خاصة في ما يتعلق بأمور المناهج النقدية الحديثة ومصطلحاتها.

المرأة الناقدة

من الغريب أن حضور المرأة في الشعر لا يوازيه حضور المرأة في نقد الشعر دون أن يكون ذلك مفهوما خاصة مع غياب الاهتمام بدراسة التجارب الشعرية للمرأة الشاعرة وهو ما يلقي على المرأة الناقدة مهمة لا يبدو حتى الآن أنها واعية لها أو متحمسة للقيام بها. إن هذه المسؤولية لا تعني بأي حال من الأحوال تقسيم النقد على أساس جنس صاحبه ولا عزل الممارسة النقدية وفق هذه الاشتراطات الجنسانية وإن كانت المرأة الناقدة يمكن أن تكون أكثر قدرة على الإنصات لما تقوله قصيدة المرأة من الناقد الرجل.

وما يزيد من هذه المفارقة أن بعض الإسهامات التي قدمتها أكثر من ناقدة في مجال دراسة الشعر لم يحاول أحد الإشارة إليها أو التعريف بها أو مناقشة ما تطرحه من رؤى وأفكار لكي يتم تشجيعها على مواصلة هذه الإسهامات وتطويرها، وكذلك التشجيع على ظهور إسهامات جديدة لكاتبات أخريات.

إن المهم في هذه الدراسات أنها حاولت من منظور منهج حداثي أن تقارب الشعر وتبحث في جماليات التعبير فيه خاصة على مستوى الصورة الشعرية والمكان والبنية الاستعارية. وعلى الرغم من أهمية ما قدمته هذه الدراسات فإنها ظلت عند بعض الناقدات محاولات يتيمة لم يتم تطويرها ومتابعتها لأسباب مجهولة لعل أهمها ضعف الاهتمام بهذه الإسهامات وتراجع حضور الشعر في الحياة الثقافية.

تراجع دور المرأة النقدي (لوحة للفنانة هيلدا حياري)

من هنا تظهر أهمية تنشيط الملتقيات والندوات النقدية وفسح المجال أمام المرأة الناقدة حتى تأخذ موقعها في هذه الملتقيات لكي نستعيد حضور المرأة الناقدة الفاعل خاصة في مجال دراسات الشعر بعد أن هيمن النقاد على الحياة النقدية وتصدروا واجهاتها بجدارة أو بغير جدارة، ما انعكس سلبا على مشاركة المرأة ودورها فيها، ولم تستطع الحضور والانتشار سوى أسماء أقل من عدد أصابع اليد الواحدة، الأمر الذي جعل النقد يبدو وكأنه ممارسة خاصة بالنقاد الرجال. إن هذا الواقع السائد في حياتنا الثقافية لا يعفي المرأة الكاتبة من مسؤولياتها في هذا المجال فهي المعنية بتطوير دورها وتوسيعه ولا يكون ذلك إلا بالمزيد من المشاركة الفاعلة والنشيطة في الحياة الأدبية.

هل الأدب في خطر؟

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

منذ نهاية القرن الماضي، وبداية الألفية الجديدة، أي مع الانتشار الواسع والهائل لوسائل الاتصال الحديثة، واكتساحها لجميع ميادين الحياة، شرعت أصوات هنا وهناك في دقّ الأجراس مُعْلنة أن الأدب في خطر، وأن الأعمال الكبيرة خصوصا في مجال الرواية كتلك التي شهدها القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين في طريقها إلى الاضمحلال، وأن الكتاب الورقي قد يختفي نهائيا من الأسواق، وأن عدد القرّاء في جميع أنحاء العالم في انخفاض مفزع. ولإقامة الدليل على ذلك قدّم أصحاب هذه الأصوات أدلة بدت للكثيرين مُقنعة، وصائبة، بل قاطعة.

لكن ما تجاهله أصحاب هذه الأصوات، أو هم تغافلوا عن ذكره عمدا أو عن غير عمد، هو أن تحذيراتهم من موت الأدب كانت قد سبقتها العديد من التحذيرات الأخرى، خصوصا مع انتشار الراديو والتلفزيون في النصف الأول من القرن العشرين.

وأذكر أنني قرأت ذات مرة مقالا صدر في إحدى الجرائد الفرنسية عام 1947، وفيه يقول صاحبه إن فرنسا أصبحت مثلما كان حالها في أواخر عهد لويس الرابع عشر "مستشفى من دون أدوية". وهو يعني بذلك أن المشهد الأدبي والفكري والفلسفي في بلاد موليير وديدرو وروسو وفولتير وبالزاك وستاندال بات يفتقر إلى أعمال مهمة. لذا أصبحت الثقافة الفرنسية مهددة بالسطحية والبؤس والرداءة على جميع الأصعدة.

لكن سرعان ما ظهرت في الخمسينات والستينات من القرن الماضي أعمال أدبية وفكرية وفلسفية كذبت توقعات صاحب المقال المذكور، ودحضتها.

ورادًا على الذين يرون أن عهد الأعمال الكبيرة والهامّة قد ولّى، وأن الأدب السطحي والرّديء هو الذي أصبح طاغيا ومهيمنا، قال أنطوان كابانيون، وهو ناقد كبير وأستاذ مرموق في "الكوليج دي فرانس"، إن التّشكّي من ظاهرة انحسار الأعمال الكبيرة ليست جديدة. فقد حدث هذا في فترات مختلفة منذ بروز الحداثة في منتصف القرن التاسع عشر. وعقب كلّ فترة من هذه الفترات، تظهر أعمال مهمّة، بل عظيمة أحيانا.

> الناس لم ينقطعوا عن القراءة، بل لعلّهم يقرأون أكثر من ذي قبل، غير أن قراءاتهم سطحيّة وسريعة

فقبل صدور الجزء الأوّل من "البحث عن الزّمن المفقود" لمارسيل بروست، وكان ذلك عام 1913، لم تشهد فرنسا عملا أدبيًا بتلك القيمة العالية حتى أن القرّاء والنّقّاد ظنّوا أن عهد الأعمال المهمة والعميقة قد دفن إلى الأبد.

ويعتقد الأستاذ كابانيون أن ما يتميّز به الأدب الفرنسي منذ القرون الوسطى هو التّواصل. فقد أثبت التّاريخ أن لكل قرن عظماءه وعبقريّاته. والشيء الذي لفت انتباهه في الفترة الأخيرة هو العودة إلى فترة الحرب الجزائريّة، فقد أصدر عدد من الروائيين أعمالا مهمّة عن تلك الفترة القاتمة، كاشفين عن ملامح مجهولة، وعن جوانب نفسية وإنسانية لم يتمّ التطرّق إليها من قبل.

ومع أن هذا الأمر يأتي متأخرا، فإنه يمنح الأدب الفرنسي تلك القدرة على الغوص في الواقع تماما مثلما هو حال الأدب الأميركي الذي استطاع مع كتّاب من أمثال نورمان مايلر، وترومان كابوتي، وشارل بوكوفسكي، وهونتر س. طومسون وغيرهم، أن يكون مواكبا للواقع في سيلانه وتدفّقه اليومي، وتغيراته المتلاحقة.

ويرى كامبانيون أن الشعراء الفرنسيين الحداثيين الكبار من أمثال رامبو، وبودلير، ومالارميه، وفاليري، وأبولينير وغيرهم، لم يكتسبوا الشهرة التي تليق بمقامهم إلا بعد وفاتهم. لذلك لا بدّ من الإقرار بأن عدد قرّاء الشعر الحديث محدود دائما.

من هنا يمكن القول -بحسب كامبانيون- إن الأدب ليس في خطر، وإنما القراءة هي التي تواجه مصاعب بسبب الإنترنت. وصحيح أن الناس لم ينقطعوا عن القراءة، بل لعلّهم يقرأون أكثر من ذي قبل، غير أن قراءاتهم سطحيّة وسريعة. لذا هم لا يقبلون على الأعمال الروائيّة أو الشعريّة أو الفلسفيّة أو غيرها من الأعمال التي تتطلّب التأني والصبر والتأمل العميق.

أما الظاهرة الخطيرة الأخرى التي يُحَذّرُ منها الأستاذ كامبانيون فهي القطيعة بين العلم والأدب. فالكثير من الأطباء والمهندسين وعلماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم، يعتقدون أنهم ليسوا بحاجة إلى قراءة الشعر، أو الرواية أو الكتب الفلسفية أو النقدية لأنها بحسب رأيهم، ليست من اختصاصهم. والحال أن هؤلاء بحاجة إلى ثقافة أدبية حتى لا تعميهم اختصاصاتهم العلميّة عن الواقع الإنساني في جميع تجلّياته، وإفرازاته.

وقد دلّت التجارب على أن المغالين في إيمانهم بقوة العلم غالبا ما يفقدون الحس الإنساني، ويتجلون في كائنات مسكونة بالعنف والشر كما كان حال العلماء الذين استخدمهم هيتلر وستالين في المحتشدات ومعسكرات الاعتقال، والذين كانوا يتعاملون مع الكائن البشري كما لو أنه فأر في مختبر.

ولو نحن عدنا إلى التاريخ لكشف لنا أن انصراف الناس عن الأدب متوهمين أنهم قد يجدونه في مجالات أخرى، مثلما هو حالهم راهنا مع انتشار وسائل الاتصال الحديثة، قد يضللهم، ويوقعهم في أخطاء جسيمة. وهذا ما حدث لهم مع التقدم العلمي. فقد ظنوا أن الاكتشافات العلمية الكبيرة قد تحقق لهم السعادة المرجوة، وتخفف من آلامهم، ومن عذاباتهم. غير أن الحربين العالميتين، وما جرّتاه على الإنسانية من كوارث جسيمة، أبطلت مثل هذه الأوهام، وقدمت الدليل القاطع على أن التقدم العالمي قد يكون سببا في دمار الكون، وفي خراب الأرض كما في قصيدة إليوت الشهيرة.

قرّاء جدد